﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله﴾

□ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله □

قال تعالى : ﴿ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ [البقرة : ٢٠٠ ، ٢٠١] .

كان أهل الجاهلية يأتون أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز.. وهذه الأسواق لم تكن أسواق بيع وشراء فحسب ، إنما كانت كذلك أسواق كلام ومفاخرات بالآباء ، ومعاظمات بالأنساب ، لم تكن لهم رسالة إنسانية بعد . فرسالتهم الإنسانية الوحيدة هي التي ناطقهم بها الإسلام ، فأما قبل الإسلام وبدون الإسلام فلا رسالة لهم في الأرض، ولا ذكر لهم في السماء، فيوجههم الإسلام إلى ذكر الله في ختام مناسك الحج : إنكم تذكرون الآباء حيث لا يجوز أن تذكروا إلا الله، فاستبدلوا هذا بذاك . بل كونوا أشد ذكرا لله ، وأنتم خرجتم إليه متجردين من الثياب ، فتجردوا كذلك من الأنساب .

ويريهم الله مقادير الناس ومآلاتهم بميزان التقوى ، وهو الميزان الجديد للقيم البشرية ﴿ فمن الناس من يقول .. ﴾ الآية .

إن هناك فريقين : فريقا همه الدنيا ، فهو حريص عليها ، مشغول بها ، وقد كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف في الحج فيقولون : اللهم اجعله عام غيث وخصب ، وعام ولادٍ حسن ، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئا ، ولكن مدلول الآية أعم وأدوم ، فهذا نموذج من الناس مكرور في الأجيال والبقاع ، النموذج الذي همه الدنيا وحدها . يذكرها حتى حين يتوجه إلى الله بالدعاء ؛ لأنها هي التي تشغله ، وتملأ فراغ نفسه ، وتحيط بعالمه ، وتغلقه عليه .

وفريقا أفسح أفقا ، وأكبر نفسا ؛ لأنه موصول بالله يريد الحسنة في الدنيا ، ولكنه لا ينسى نصيبه في الآخرة فهو يقول : ﴿ **ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** ﴾ .

إنهم يطلبون من الله الحسنة في الدارين ، ولا يحددون نوع الحسنة ، بل يدعون اختيارها لله ، الله يختار لهم ما يراه حسنة ، وهم باختياره لهم راضون . والأخير رابح حتى بالحساب الظاهر ، وهو في ميزان الله أربح وأرجح .

ثم تنتهي أيام الحج وشعائره ومناسكه بالتوجيه إلى ذكر الله وإلى تقواه ﴿ **واذكروا الله في أيام معدودات** ﴾ .

أيام التشريق .. أيام منى . ثم يذكرهم بمشهد الحشر بمناسبة موسم الحج ، وهو يستجيش في قلوبهم مشاعر التقوى أمام ذلك المشهد المخيف ﴿ **واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون** ﴾ .

وهكذا نجد في هذه الآيات كيف جعل الإسلام فريضة الحج فريضة إسلامية ، وكيف خلعها من جذورها الجاهلية ، وربطها بعروة الإسلام ، وشدها إلى محوره ، وظللها بالتصورات الإسلامية ، ونقّاها من الشوائب والرواسب .. وهذه هي طريقة الإسلام في كل ما رأى أن يستبقيه من عادة أو شعيرة ... إنها لم تعد هي التي كانت في الجاهلية ، إنما عادت قطعة جديدة متناسقة في الثوب الجديد ، إنها لم تعد تقليدا عربيا ،، إنما عادت عبادة إسلامية فالإسلام – والإسلام وحده – هو الذي يبقى ، وهو الذي يُرعى .